التمكين, والاخلاق والنزاع خلال عملية التعامل

ليس من العسير ان نفهم كيف يكون لاقتسام السلطة ذلك الاثر المعنوي على تمكين الراوي ( اي اعطائه قدرا من السلطة ) فمن المؤكد ان الناس يكونون اقرب للشعور بانهم ممكنون عندما يتم دمجهم بصورة كاملة , وتقديرهم تقديرا وافيا , عندما يقومون بأدوارهم في ساحة اجماعية مفتوحة وممهدة امامهم . وتكتب ريكارد فتذكر ان المبحوثات اللائي درستهن في بحثها الكيفي ( القائم على تعاون المبحوثين ) عن بعض البغايا البريطانيات كن كذلك يشعرن بالتمكين بفضل استخدام طريقة التاريخ الشفاهي في البحث . ويعد عمل ريكارد عمل مهما , لانه يثير قضايا اخلاقية تدور حول التمكين , و حركة الدفاع الاجتماعي, واقتسام السلطة .

هل يعد اخلاقيا - على طول الخط - ان نمكن لشركائنا في البحث ( المبحوثين ) ؟ وماذا يكون الامر ان كانوا متورطين في نشاط غير مشروع او في نشاط نراه من وجهة نظرنا الاخلاقية او السياسية نشاطا مسببا للمشاكل ؟ وبوصفنا باحثين ملتزمين نتساءل : اين يوجد الخط الفاصل بين التمكين والدفاع الاجتماعي؟ فان شعرنا بنوع من الالتزام بمصلحة شركائنا في البحث ( مبحوثينا ) عن طريق تمكينهم ( ان كان بوسعنا ذلك ) , فهل من الضروري ان نوافق على سلوكهم ؟ فهذه قضايا اضطرت ريكارد لمواجهتها عندما اقتسمت السلطة مع البغايا البريطانيات , بما يتضمنه هذا الاقتسام من تكليف واحدة منهن لاجراء المقابلات مع المبحوثات. وقد تبنت ريكارد " منظورا ايجابيا للجنس" تبنيا صريحا, وهو الامر الذي عرض جهدها العلمي للفحص والتدقيق . وقد ربط البعض خطة بحثها التعاوني بتاييد البغاء و الدعوة اليه .

لهذا السبب , و نظرا لالتزامي بتطبيق طريقة التاريخ الشفاهي في هذا المجال , فقد كان لزاما علي ان انحاز الى جماعة الضغط السياسي المؤيدة للعمل في مجال الجنس , و ان انخرط في اعمال جماعات الناشطين القومية والدولية التي تدعم حقوق العاملين في مجال الجنس . وقد ترتب هذا الانخراط مع الناشطين كذلك على اهتمامي الشديد باقتسام السلطة مع المبحوثين . ولكي اضمن تسجيل حكايات هؤلاء النساء وجمعها كان لزاما علي ان اكون مستعده لاستغلال وضعي الاكاديمي الذي يمنحني شيئا من الافضليه لتقديم الدعم السياسي والعملي للمبحوثات, ولتسهيل الاتصال من خلال الشبكات الدولية , ولاستغلال المادة المسجلة في مقابله في مقابلات التاريخ الشفاهي في خدمه الاهداف السياسية والتربوية . وبالنسبة لي , فقد افضى بي ذلك الى عدد من المشروعات الفرعية كتنظيم مؤتمر للعاملات في مجال الجنس في المملكة المتحدة , و اطلاق مشروع التربية الصحية باستعمال نصوص مستمدة من شرائط تسجيل تعرض بواسطة جهاز العرض العلوي بوصفها المصدر الاساسي لهذا المشروع . وقد قادني هذا الوضع - ايضا - الى الانشغال بلقاءات محلية ودولية مع الناشطين , وباستغلال المادة المسجلة في مقابلات التاريخ الشفاهي كمصدر تعليمي للعاملين مجال الصحة . وبمرور الوقت , تحققت- بصورة بطيئة - من ان استخدم التاريخ الشفاهي في مجال الجنس كان ينفذ دائما انطلاقا من " منظور ايجابي للجنس " مشابه للمنظور الذي تبنيته وكان يستخدم بصفة شبه دائمة داخل سياق دعوي على المستوى الشخصي و على المستوى السياسي .

وهكذا نرى ريكارد متنبهة للتفكير في انحيازها السياسي الشخصي لرواياتها ( المبحوثات ) , كما انها تكشف لنا عن مدى تاثير هذا الانحياز على تحليل البيانات و على دراستها عموما . ومع اننا لا نرى ان من الضروري ان نعلق على الاختيارات البحثية لريكارد في حد ذاتها , فاننا نرى ان موقفها يقدم لنا مثالا قيما نستطيع ان نستفيد منه في التامل العميق لما نجريه من بحوث . وعن طريق انهماك قراء مؤلف ريكارد في المناقشة - التي شملت كلا من السياق الاكتشاف وسياق التبرير - يتزودون بالمعلومات الكافية عن عملية البحث وعن علاقة الباحثة بهذا العمل بحيث يستطيعون تفسير عملها نظرا لانهم يعتبرونه عملا سليما لاغبار عليه . وبهذه الطريقة تكون قد ادت واجبها بجانب انها تكون قد زودتنا بدراسة حالة قوية تتيح لنا ان نتامل الطريقة التي نتبعها جميعا في الاشتراك في مصفوفة التاريخ الشفاهي المكونة من : طريقة البحث , والاخلاق, والسياسة . وهذا الامر يجذبنا الى دراسة حشد من القضايا الاخرى التي تدور حول المشاركة بين الباحث والمبحوث في عملية تفسير البيانات .

وعلى حين تستلزم بعض مشاريع البحث تعاونا قويا , فان محاولات اقتسام السلطة قد تتسبب في تعويق مشروعات اخرى . كما ان التفسير التعاوني قد يغير طبيعة هذه الدراسة او مسارها على نحو لا يرتاح اليه الباحث . ونظرا لان التفسير مكون اساسي من مكونات صناعة المعنى او بناء المعنى , فان الاشتراك فيه يؤثر تاثيرا عميقا على بناء المعرفة , كما انه ليس امرا مرغوبا فيه بالضرورة .

يعد التشارك مثلا اعلى لبعض اعمال التاريخ الشفاهي , حيث يتصف بانه مثل مسؤول وقادر على ان يحفز كلا من الباحث والمبحوث , كما يتسم بالنزعة الانسانية , الا انه قد يبدو هدفا غير مناسب في بعض انواع المشروعات , بصرف النظر عن الرعاية المبدئية لكرامة سائر الاشخاص المشتركين في البحث . . ذلك ان اخذ كافة الاراء المخالفة لرايك امر, ولكن العجز عن اخضاعها للفحص والتدقيق النقدي امر اخر . فهل يعتبر عرض او هذا العرض –في حد ذاته - شكلا من اشكال البحث النقدي ؟ وهل يعد ذلك كافيا ؟ اننا بحاجه الى مزيد من التفكير في اوجه القصور و في امكانيات النجاح التي يتصف بها العمل في التاريخ الشفاهي مع اولئك الذين لا نتعاطف مع مواقفهم بالاساس .

تثير شوبز مسائل مهمة في نفس الوقت الذي تعيد فيه التاكيد على ان الاستخدام الكلي لاقتسام السلطة لا يعدو ان يكون احد اساليب التاريخ الشفاهي . ذلك انه من المقول تماما ومن المناسب غالبا ان يحتفظ الباحث بالحق في ان يكون له سلطة على عملية التفسير. ونحن كباحثين نستطيع ان ندافع عن وجهات النظر النسوية وغيرها من وجهات النظر الخاصة بحقوق الانسان بدون ان نضع في الاراء التفسيرية التي يراها مبحوثونا من الرواة في نفس المستوى الذي نضع فيه تحليلنا الخاص بنا . فنحن لسنا بحاجة لان ندعو الراوي ليشاركنا في عملية البحث خارج نطاق جلسات المقابلة اذا لم يكن مشروعنا يجيز هذه المشاركة . ذلك ان عملنا العلمي او راحتنا النفسية تقتضيان ان نحتفظ فعلا بسلطة فكرية صارمة على عملية العرض النهائي لنتائج البحث .

مثال ذلك , ان مشروع التاريخ الشفاهي الخاص بصوره الجسد , والذي بدانا به هذا الفصل , كان يلزم بالفصل بين الباحث والراوي اثناء تحليل البيانات . فقد كانت "كلير" لا تزال حبيسة مرضها النفسي :تعاني من فقد الشهية العصبي للطعام , كما كانت صحتها تتدهور بسرعة اثناء فترة تنفيذ المشروع . وعلى الرغم من معركتها المستمرة الواضحة, فقد كانت "كلير" تؤكد بصفة متكررة على انها اصبحت - في تلك الفترة - في صحة وعافية وانه بات لديها" رؤية واضحة لمتاعبها السابقة". وفي حالة الاصابة بمرض الفقد العصبي لشهيةالطعام , فان من الواضح ان هذا النوع من الحالة العقلية الثابتة يكون شائعا بين النساء اللاتي يعانين من احد اعراض اضطرابات تناول الطعام . وكانت قدرتها على الحكم على هذه الحالة بطريقة مجدية تتعرض لتشويش حاد بسبب مرضها هذا . وبجانب انكارها الشديد لظروفها النفسية السيئة فقط كانت في حالة صحية اخذة في الضعف (وهو الامر الذي كان له –هو الاخر - اثر ظاهر على ملكاتها العقلية ). وقد جعلت كل هذه الاعتبارات التحليل التعاوني مستحيلا وغير مرغوب فيه في الوقت نفسه .

وفي مثل هذا الوضع ينبغي على الباحث ان يحتفظ بسلطته ( اي سيطرته) العقلية على البيانات لكي يصل الى توليد المعنى الذي يصدق على القصة التي يحكيها الراوي. وهو الامر الذي قد يشق عليك اذا كانت لك رابطة قوية تربطك بالراوي الذي تجرى معه المقابلة, ومع ذلك , فانك, بوصفك باحثا, بحاجة الى ان تفكر في هذه العملية الشاملة وفي المعرفة النهائية المستخلصة منها, مما قد يعني اتخاذك لقرار يشق عليك اتخاذه. وفي مثالنا هنا يتم اتخاذ هذا القرار في الوقت الذي كانت فيه "كلير" عاجزة عن تقديم المساعدة الفعالة لك في تفسير شبكة الضغوط التي بلغت ذروتها فيما اصابها من اضطراب في صورة جسدها لديها . بل انه في الاحوال التي يكون فيها الراوي "قادرا" على المشاركة في العملية التفسيرية, فقد تكون هذه المشاركة , ببساطة , امرا لا يهتم به الباحث .وهذه قضية دقيقة هي الاخرى .

من الناحية السياسية, فانني ارى فعلا ان ديناميات المقابلة ذات طابع تعاوني او تشاركي. بيد اني ارى كذلك اننا نحن الباحثين بحاجة الى ان نفكر بعناية في مسالة : اين نرغب في اقتسام السيطرة العقلية على عملنا واين لا نرغب في ذلك. فنحن نحتاج فعلا لان نكون واضحين فيما يتصل باين نريد ان نختلف عن مبحوثينا من الرواة, والى اي مدى يكون هذا الاختلاف , فقد يكون الاختلاف موجودا في اثناء المقابلة نفسها , والارجح ان يوجد فيما نكتبه بناء على المقابلات. كما نحتاج الى الوضوح عندما نرغب في انتقاد مبحوثينا من الرواة, اي عندما لا يوجد متسع لرؤية مشتركة نتقاسمها معهم .

مثال ذلك, ماذا يكون الامر اذا كان الراوي الذي تجرى معه المقابلة متعصبا عنصريا, او منحازا جنسيا للرجال ضد المراة او مصابا بالخوف المرضي من الجنسية المثلية ؟ ان كنا ملتزمين بروح العدالةالاجتماعية فستاتي علينا اوقات لا تكون فيه السلطة المقتسمة اختيارا وردا باي شكل. فبصرف النظر عما اذا كنا –او لم نكن - نتقاسم نوعا من "المشاركة الوجدانية الاساسية " مع اولئك الذين نجرى معهم المقابلات , فنحن بحاجة الى التفكير بجدية في الموقع الذي يحتله "صوتنا العقلي" (اي موقفنا الفكري ) المستقل داخل عملنا. ويتطلب منا هذا الموقف ان نرسم حدود التشارك او التعاون داخل أي مشروع بحثي , وان نتشكلك فيها , ونتفاوض في شانها, وان نعيد التفاوض فيها , وذلك في كل مرة نعمد فيها الى التفكير في الملاءمة بين اختياراتنا واهدافنا البحثية. كما نرى ان من المهم للباحثين الكيفيين ان يكتبوا بصراحة عن هذه العملية ليساعدوا غيرهم في التفكير فيما يتسم به البحث التعاونى من تعقد , وليبثوا الروح والحيوية في قراراتها المتصلة بتحديد المكان الذي يقع فيه أي مشروع معين على امتداد هذا الخط المتصل من التعاون الى اللاتعاون . فهيا بنا نبحث مثالا يوضح اهمية استمرار الباحث مخلصا لصوته (لرؤيته ) ,كما يوضح المخاطر المحتملة للتعاون الذي يفتقر الى التحديد الدقيق.

كتبت سيتزيا دراسة حالة عن علاقتها بالراوي الذي كانت تجري معه مقابلات التاريخ الشفاهي عندما كانا يحاولان اقتسام السلطة (او اقتسام السيطرة) اثناء تقديمهما لسيرته الشخصية عن فترة مدتها ست سنوات . وتلقي خبرتها الضوء على ما في التعاون من مزايا وما ينطوي عليه من مخاطر لا تنفك عنه بحال.

وكانت سيتزيا تشارك راويتها-" ارثر"- في صفات مهمه تجعلهما "من الاقارب" وخاصة في انتمائهما الى الطبقة العاملة, وان لهما اهتمامات مشتركة ,وهما الامران اللذان يسرا تحقيق الفة رائعة بينهما مرحلة جمع البيانات .

قام هذا الحوار المتواصل بيني وبين "ارثر" باثراء عملية التاثير على قصة حياة امرى اخر: فقد انتقلت بسرعة من دور الباحثة التي تجري المقابلة الى دور الباحثة التي تساعد "ارثر" على الكشف عن ماضيه. ولم يكن من الممكن تحقيق التطور في هذا الحوار داخل نطاق هذه العملية من خلال علاقتنا هذه .

يؤدي نوع الالتزام بالمشروع البحثي, بجانب الملكية المشتركة له , الى انتاج بيانات قد تظل طي الكتمان لولا وجود هذين الامرين . ومع ذلك فان للالتزام الذي يقتضيه التعامل التعاون ثمنا عاطفيا , كما ان بامكانه في بعض الاوقات ان يكون ذا تاثير طاغي على الباحث . وبالمثل, فانه في نفس الوقت الذي يشعر بعض الدارسين بان التفسير المشترك يثري عملهم, قد يشعر علماء اخرون بخسارة غير مرغوب فيها عندما يفتقدون السلطة العقلية (السيطرة الفكرية) على بحثهم , وذلك على نحو ما توضح سيتزيا في النص التالي:

عندما بدا عملنا... كنت اشعر بالرضا البالغ عن الطريقة التي كان يسير بها هذا المشروع... وعندما... اقتربنا من نشر الكتاب , بدا ارثر يتصرف بطريقة عدائية, مسلطا على ضغطا هائلا لاسرع في عملي, ومهددا باكمال العمل مع كاتب اخر. والاهم من ذلك انه كان يثير القضايا لقه المتعلقة بالملكية (الفكرية): فاصبح كتابنا هو" كتاب ارثر" وحده . وقد زاد هذا الوضع سوءا ان "ارثر" كان يعاني ازمة عاطفية و عقلية حادة, وهو الامر الذي يعني انه اصبح شديد الاعتماد علي, بحيث كان يطلبني على الهاتف وهو في حالة اضطراب في جميع ساعات النهار والليل. وكنت اشعر- ولا ازال اشعر فعلا بمسئولية هائلة عن "ارثر", كما كنت اشعر بانه ينبغي على ان اساعده للخروج من ازمته, الا انني لم اكن اشعر بان لدي ما يمكنني من هذه المساعدة.و بالتفكير في هذا الوضع, تبين لي ان هذه التعقيدات نجمت جزئيا من الطبيعة التجريبية للمشروع : فلا انا ولا ارثر سبق لنا ان عملنا بمثل هذه الطريقة التعاونية من قبل. وقد كان مدخلي لهذا المشروع نوعا من الخبرة التعليمية غير الرسمية... وانا الان اؤمن بانه من الاهمية الشديدة القيام بتحديد واضح للحدود الفاصلة بين الباحث والراوي وللخطوط الارشادية العامة عند مباشرة العمل في مشروع يتسم بهذه الطبيعة. ففي بداية هذا التعاون كنت اتولى توجيه العمل الى حد بعيد, كما كان "صوت" مستقل بالتاكيد , ومن نتائج هذا النقص في وضوح الرؤية بخصوص التعاون وحدوده انه كلما كان المشروع يمضي قدما , كنت اشعر انني افقد سلطتي وسيطرتي بالتدريج, وان ارثر اصبح اكثر فاكثر تحكما- وفي الواقع اصبح اكثر استئسادا – وان صوتي بدا مفقودا .

يوضح هذا النموذج التوترات التي قد يواجهها الباحثون عندما يحاولون تحديد اين يقع مشروع ما على متصل اقتسام السلطة. وقد توصلت سيتزيا, في نهاية الامر ,الى ادراك انه كان بامكانها هي و"ارثر"- وفي حالة مشروعها هذا- ان "يملكا" هذا المشروع عن طريق تقبلهما للنتائج المتعددة التي تنجم عن تلك الدراسة.اذ تكون هي وراويتها "ارثر" في هذه هي الحالة احرارا في معالجة هذا العمل بطرق مختلفة, كما انهما يستطيعان ,كلا على حدة, ان يضعا- من خلال تلك المسارات غير المتوقعة -بصمتيهما الشخصيتين على المعرفة التي استحدثاها وكوناها معا. فتنفع سيتزيا بجوانب المشروع فيما تكتبه بينما يكون "ارثر" قادرا على الانتفاع بهذا المشروع في مجال عمله . وقد اقتضى منهما ذلك الوضع ان يتحررا من الفكرة التي ترى ان من شان "كتاب واحد" ان يكون ثمرة هذه العملية , وان يدخلا في حسابه حسبانهما وجود نتائج متعددة لها. ونحن نرى ان من الاهمية ان نبقى متفهمين ومتقبلين لفكرة ان البيانات يمكن ان تستعمل بطرق متعددة, وهو ما استقر عليه قرار الباحثة في هذا المشروع. ومع ذلك, فاننا نحذر من ان الفكرة ليست مناسبة على الدوام , كما انه يتوجب على الباحث ان يدقق النظر فيها . فحدد اختياراتك وتوصل الى القرارات التي تكون منطقية في ظرف معين .

على الرغم من الصعوبات التي قد تظهر, فان بالامكان ان يكون التعاون ممارسة جديرة بالاهتمام او ضرورية. لذلك, فان من المفيد ان تكون متحسبا للمستقبل , وان تحسن تصميم دراستك, وان تظل متقبلا لاجراء التعديلات التي تمليها الممارسة. فان قررت ان تتشارك السلطة علي البحث مع رواتك, فاننا نقترح عليك الاستراتيجيات التالية للتعامل مع التحديات التي قد تواجهها.

1. ضع حدودا واضحة فيما يتصل بالعلاقة بين الباحث والراوي . وبتعبير اخر, كرس وقتا كبيرا لتحديد علاقتك هذه . وتحدثا عن هذه العلاقة مع بعضكما حديثا مستفيضا حتى تتحقق لكما الرؤية الواضحة المتبادلة. واستمر في اجراء هذه الحوارات على امتداد كافة المراحل المختلفة لهذه العملية حتى تستطيع ان ترسخ -على الدوام- ما وضعته من حدود واضحة وما تنتظره من توقعات (في نفس الوقت الذي تكون مشتغلا فيه بتعديل هذه الحدود والتوقعات لتتناسب مع النمو الذي يحدث في هذه العلاقة).ولابد ان يكون موقفك من هذه العلاقة موقفا كليا شاملا.
2. وضع توقعات دقيقة فيما يتصل بدور (او ادوار) كل شخص في هذه العملية التعاونية على حدة. وتتضمن الامور التي يتعين مناقشهتها والوصول الى اتفاق حولها مايلي:

أ-عملية تدوين التسجيل .

ب-الملاحظات الميدانية وكتابة التعليقات النظرية.

ج- اجراءات التحليل.

د-التفسير وبناء النظرية.

ه- الكتابه او العرض .

و-استعمال النتائج (بما تتضمنه هذه النقطة من تقدير عدد النتائج التي يمكن توقعها).

ي- ضع افكارا عملية لكيفية التعامل مع ما يحتمل ظهوره من خلافات في التفسير.

ما هي درجة الاختلاف التي يتوقع كل طرف منكما ان يدرجها في الكتابة النهائية؟

فاذا قمت بالتفكير جيدا في هه الامور كلها, امكنك تفادي كثير من المخاطر التي قد تطرا, وبذلك تكون قد احسنت استعمال هذا الوقت. وبهذا تستطيع ان تكون متقبلا للاتجاهات المتحررة الاقل تمسكا بالتقاليد في مجال التاريخ الشفاهي , والتي قد تتيح الفرصة لطرح اسئلة علمية اجتماعية جديدة وللاجابة عليها. ولا تخش ابتكار منهجيات بحث جديدة طالما انك تعي التجريب يستلزم الانفتاح العقلي والدقة البالغة.